دلالة الـــمكان في مقامات الـــحريري

مـــحمد رضا خضري *

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابـــها بجامعة الشهيد بـــهشتي، طهران

(١١٧- ١٣٦)

تاريخ الاستلام: ٩٣/٠٩/٠٥؛ تاريخ القبول: ٩٤/٠٢/٣٠

الـــملخص

تـــهدف هذه الدراسة إلى استعراض ومناقشة أنـــماط الأماكن في مقامات الـــحريري، وبيان أهميتها وعلاقتها بالإنسان، من حيث حياته الدينية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية، ونظرته إلى الـــمكان، التي ينبغي أن تكون على وجه صحيح ومثال سليم. وقد حاولت من خلال هذه الدراسة كشف النقاب عن الـــخطوط العريضة لنظرية الـــحريري، ودلالاتها في الـــمكان، وما لها من تأثير وتأثر عند الإنسان، والتي نـــجح الـــحريري في سردها وسرد ما لها من رمزية ووضوح في مقاماته، مشبعاً ذلك بأصول فن الكلام البلاغي من ألفاظ وعبارات وجمل في غاية الروعة والـــجمال، مرسخاً لها مكانة مميزة في الأدب.

الكلمات الدليلية: الـــمقامات، الـــحريري، الرمزية، الـــمكان، الدلالة

* البريد الالكتروني للكاتب: *Sr.khezri@gmail.com*

۱- المقدمة

شهدت الدراسات السردية في الآونة الأخيرة تطورات هائلة، ومن هذه الدراسات ما عرفت بدراسة المكان، حتى عدّ مع الزمان عمودين أساسيين يرتكز عليهما البناء القصصي. وجاء الاهتمام بالمكان في هذه الدراسة كنتيجة تتعلق بالهوية وارتباطها بالبيئة، مقابل رغبة في تطوير الذات، واستعادة علاقة فاعلة بين الذات والمكان لتحديد هذه الهوية.

لم يكن مصطلح المقامة غريباً في التراث العربي القديم، فقد ورد في الشعر الجاهلي ولكن بمفاهيم أُخرى، كالمجلس والجماعة من الناس، حسب ما ورد في لسان العرب. (لسان العرب مادة قوم : ۱/۳۵۵).

وقد بدأت المقامة لغويا تتخذ مفهومها الفني عند الهمذاني في القرن الرابع للهجرة، ثم يعود الفضل كله إلى الحريري في بسطها وانتشارها، وقد عدّ بعض الباحثين العرب المعاصرين مقامات الحريري أهم نموذج أدبي ظهر في العصر العباسي. (ضيف، د.ت: ۲۹۷) كما عدّها بعض المستشرقين كبروكلمان أكمل وسيلة للتعبير عن روح العرب حتى مطلع العصر الحديث. (بروكلمان، د.ت: ٥/ ١٤٤).

وفي ضوء الدراسات التي جاءت عن المكان في مقامات الحريري وبيان أهميتها وعلاقتها بالشخصية، وما للمكان من تأثير وتأثر على الانسان، وكذلك التقنيات التي استخدمها الحريري في هذا الصدد، وتوظيف وسائله وممارساته التطبيقية في هذا المجال، مما جعلني أن أكتب هذه المقالة، حيث قمت بجهد متواضع في مناقشة مقاماته حول المكان، وما يحمل من رموز متعددة، راجيا الوصول إلى هذا الهدف المنشود.

۲- الدراسات السابقة

لقيت مقامات الحريري عناية كبيرة من الباحثين في الشرق والغرب، فأفردت لها كتب ودراسات، لعل من أبرزها: كتاب المقامة للدكتور شوقي ضيف، وكتاب رأي في المقامات للدكتور عبدالرحمن الياغي، وكتاب أصول المقامات للدكتور عبدالرحمن السعافين، ودراسة الدكتور عرفة عباس حلمي عن الاقتباس القرآني والحديثي في المقامات الحريري، وبعض البحوث المنشورة في مجلات علمية محكمة اطّلع الكاتب منها على: مقامات الحريري والدراسات اللغوية للاستاذ محمود الحسن في مجلة مجمع اللغة

العربية بدمشق. وقد تركزت هذه الدراسات في مـــجملها حول نشـــأة الـــــمقامة واُصـــولها وتفسيرها، وهدف الـــحريري من تأليفها، وأثرها في المقامات العربية التي وضعت بعدها عـــبر العصور المختلفة، في حين كان الالتفات إلى الـــمكان ودلالته قليلاً، مما دفعني إلى أن أكشـــف النقاب عنه وأجلو صورته؛ فجاء هذا البحث إطلالة على أنـــــماط الـــــمكان الـــتي كـــان يستخدمها الـــحريري وقتذاك، وكيفية استغلالها. وسندرسها في هذه الـــمقالة.

٣- منهج الدراسة

اعتمدنا في دراستنا هذه على الـــمنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على وصف الظاهرة موضوع الدراسة من خلال عينة الدراسة، ثم قمنا بتحليل هذا الوصف وتصنيفه.

٤- دلالة الـــمكان فى مقامات الـــحريري

وقبل أن نتحدث عن الـــمكان ودلالته في مقامات الـــحريري، نرى أنفسنا مسوقين بـــحكم الـــمنهجية إلى أن نقول كلمة ولو مـــختصرة حول الـــمكان، من حيث إنه إلى جانب الزمان يشكلان ثنائية تبادلية في الأعمال السردية. ونلفت النظر هنا إلى أننا لن نـــخوض في بـــحثنا بكل ما يتعلق بهذه اللفظة، من حيث اشتقاقها ونشأتـــها، إضافة الى أننا سنشير إشارة عابرة إلى مفهوم الـــمكان.

وأما **الـــمكان** لغة فهو الـــموضع، والجمع أمكنة، وأماكن؛ والمكانة: الـــمنزلة. (لسان العرب، مادة كون: ١٩٢/١٢) ويرتبط مفهوم الـــمكان في اللغة العربية بالكينونة التي تعني الوجود. فالـــمكان مشتق من الفعل التام «كان» بـــمعنى: وجد، والفعل الناقص منه يعني التحول والصيرورة؛ وهنا يكون الفعل التام يعني الوجود، والفعل الناقص يعني الـــمكان الـــمتحول، وهو الـــمكان الذي لا يتحدد إلا من خلال العلاقات الـــمكانية. والـــمكان هو العنصر الرئيسي فى سرد القصص ولوكانت قصيرة كالـــمقامة.

و**الـــمقامة** هي القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية، أو فلسفية، أو خطرة وجدانية، أو لـــمحة من لمحات الدعابة والـــمجون. (مبارك، ٢٠١٠: ١٨٥) وبالنظر لأهمية الـــمكان يـــمكن القول: إنّ أهمية الـــمكان تأتي من أنها تحقق الرغبة في تـــملكه والسيطرة عليه.

وعلى الرغم من أنّ الـــحريري يصرح في مقدمة مقاماته بأنه يـــحذو فيها حذو البديع،

فقد كانت مقاماته أعظم حظاً في إقبال الناس عليها، إذ يذكر ابن الأبار أنّ كثيراً من الأندلسيين سمعوها منه ببغداد، ثم عادوا إلى الأندلس لينشروا ما سمعوا. (ابن الأبار، ۱۹۱۹م: ۲۷، ۲۸) وإذا كانت الريادة في هذا المجال في قبضة الهمداني الذي سبقه، فإنّ الحريري بلغ بهذا الفن ذراه من حيث الإحاطة والسعة، وفاقه بقوة سلطانه على اللغة، وكثرة مفرداته.

وقد وضع الحريري مقاماته على منهج بديع الزمان، فجعلها خمسين مقامة، وجعل لها راوية هو الحارث بن همام، وبطلاً هو أبو زيد السروجي يساعده ابنه، كما وضع لها أسماء شبيهة بأسماء مقامات الهمذاني، كالمقامة الكوفية، والبغدادية، والدينارية، والساسانية، والشيرازية، وهذه كلها أسماء مقامات لدى الهمذاني.

واختلف النقاد في عملية المقارنة بين الأديبين، بديع الزمان والحريري، فمن قائل بتفضيل الحريري، ومن قائل بتفضيل بديع الزمان. والواقع أنّ الفصل في ذلک ليس أمراً سهلاً، فكلاهما فارس حلبة. وأعدل كلام في رأيي ما ذهب إليه أنيس المقدسي بقوله: «وإذا قابلنا مقامات البديع بمقامات الحريري وجدنا أنّ الأولى أسهل مأخذاً، وأقلّ تكلفاً، وأكثر ابتكاراً للوقائع والحوادث. وأما الثانية فأدق صنعة، وأفضل شعراً، وأكثر تعمقاً في اللغة وأوضاعها وأمثالها وحوادث رجالها».(المقدسي، د.ت: ۳۹۲) ولعلّ في هذا الكلام على إيجازه، فصل الخطاب.

وإذا كان هناک تماثل في البنية من حيث الراوي والبطل، والسرد، والحوار، والوصف، وألوان التضمين، إضافة إلى السجع والجناس، والغريب، فإنّ هناک بعض التباين في الموضوعات مايرتبط بتركيز الهمذاني على موضوع الكدية في مقاماته، بينما الحريري يميل إلى موضوع الوعظ أكثر من الهمذاني، علماً بأنه لايلغيها من مقاماته. وليس هذا التباين سببا معتمداً من قبل الحريري لبيان جديد، أو اختلاف، فقد قدّم الحريري جديداً في أساليب السرد والتعبير، لقد كان هذا التباين ضرورة أملتها طبيعة العصر، إذ توجّه المجتمع العربي الإسلامي قبيل مطلع القرن السادس توجهاً قوياً نحو الوهن والزهد والزوايا والتكايا والطرق الصوفية، بعدما دبّ الوهن والضعف في أوصال الخلافة. (جمعة، د.ت: ۲۲۷) وهذا الكلام يقودنا إلى الحديث عن المكان ودلالته الدينية.

ومما لاشك فيه أنّ للمكان قدرة تأثيرية كبيرة على الشخصية من الناحية البيولوجية، كما يتعدى تأثيرها إلى طبيعة اللغة التي تستعملها وكذا إلى اختلاف سلوكها وانطباعها بطابعه.

فنلاحظ اختلاف سلوك الشخصية التي تسكن الريف عن التي تسكن الـــمدينة، كما تؤثر الشخصية بدورها عليه من خلال العمران أو الزراعة، فتحول الـــمكان الـــخالي القاحل إلى مكان نابض بالـــحياة، لذا فأهمية المكان تكمن في تلك الفنية التي تـــخرجه عن نظام القاعدة المادية الـــملموسة إلى نظام فكري جديد يبدعه الـــمؤلف ليضحي الـــمكان ذلك الشئ الـــمدرك بالفكر والعقل، والـــمحسوس بالنفس والعاطفة والـــموجود داخل الشخصية وبين الأزمنة في مدار اسمه المكان المتخيل من طرف الشخصية أو من طرف الـــمؤلف.

وفي مقامات الـــحريري يبرز حضور الـــمكان ويـــحتل مساحات واسعة. ففيها وجدنا التفاتاً للمكان بأنواعه الـــمتعددة: المكان العام، والمكان الخاص، والقرى، والمدن، والمركب، كما لمسنا تعدد وظائف الـــمكان في النصوص الـــمدروسة: تعليمية، ودينية، واجتماعية وإنسانية، واقتصادية..، وهذا ما سنبحثه في هذا المقال. وبعد استقراء تفصيلي لنصوص الـــمقامات وتـــحليلها للتعرف على الـــمكان توصلنا إلى أنّ الـــمكان يتنوع في النصوص الـــمدروسة ليشمل:

الـــمدينة: النادي، الـــمدارس، الـــمنتدى، الـــمسجد، الـــمسكن، الـــمدى، الـــمثوى الـــحومات، الـــمحراب، الـــمصلى، الـــحمام و...

القرية: الـــخيام، القرى، الغابة، الكيس، الـــمربع، الـــمراح، الـــمرتع والـــمطعم والـــمشرب، الكهف، الـــمناخي (موضع إناخة البعير) ، النجعة، الـــمسارح، الـــجراب، الـــمخدع، العيس ... .

البيت: الساحة، الدار، باب دار، فناءالدار، بيت العنكبوت، الدسكرة، الـــمسبح، الكنيف، الـــمنـــزل، الكن، الـــجناب، الـــمكاسر، الدست، الـــمخدع، الـــحريم، الـــخدر، باب جيرون، داركتب، بيت ليلة....

الأماكن الـــخاصة: همذان، صنعاء اليمن، بغداد، مدينة السلام، العراق، الري، الفرات، الزوراء، غانة، معرة النعمان، فرغانة، الإسكندرية، الكوفة، بابل، الغوطة، السماوة، الناشق، دمياط، الـــمراغة، أُم القرى، الـــمحجوج (البيت الـــحرام)، الرخبة، ساوة، الـــخيف (موضع بـــمكة)، سنجار، نصيبين، ميافارقين، فيد، الفردوس، الـــمشعر الـــحرام، دمشق، تبريز، حمى الـــخلافة (بغداد)، حلوان... .

الـــمركب: الـــمطية الدهماء، السفينة، الولية، الـــمحمل، الـــمطايا، الـــمهاد ... .

وعلى الرغم من اختلاف عناوين المقامات إلا أنها تهدف إلى شيء واحد، حيث نراها حلقات متماسكة ترتبط بعضها ببعض في الأهداف والغاية، وتبدو كأنها نص واحد جاءت في صورة أدبية رائعة ولوحة فنية متكاملة. وتبدأ المقامة في الغالب بمقدمة، ثم عرض للموضوع، وخاتمة، ويكون ذلك بأسلوب حواري ممتع وجميل، كما يذهب إلى ذلك الدكتور صلاح فضل، حيث يعتقد بفرادة النص الأدبي، وتميزه عن غيره من الممارسات اللغوية، إذ هو «رسالة ناجمة عن نظام محدد من المفاهيم والشفرات». (فضل، ۱۹۹۲م: ۲۲۳) أو بعبارة أخرى يقول: «بأن النص الأدبي وحدة معقدة من الخطاب ... وعمل تركيبي ووحدة شاملة... تخضع لعملية تشفير خاصة، تؤدي إلى وجود ما نطلق عليه قصيدة أو قصة أو غيرها». (المصدر نفسه: ۲٤۱).

وبالرجوع إلى نتائج استقراء النصوص نجد أنّ السمة الغالبة للأماكن تكمن في دلالات أربعة، على النحو التالي، أولاً: الدلالة الدينية: كالمسجد والمحراب والمصلى والمقابر والمحشر وأُم القرى والمحجوج والمشعر الحرام و... وثانياً: الدلالة الاقتصادية، وهي: كالدنيا وامتلاء الكيس والجيب والمربع والكأس والمحط وأفاوي الوفاق والارض والرحال ومطارف الثراء والمنبع والمرتع والمقار والندى و... ثالثاً: الدلالة الاجتماعية، وهي: كالمجمع والنادي والديوان والحاشية والمنتدى والمراتب وعرصة الجمع و.... رابعاً: الدلالة الأدبية، وهي: كإحاطة الهالة بالقمر، ولؤلؤ من خاتم (فم) عطر، وبدرتم، ويد الإملاق والعيس.

ووصف الحريري عمله في مقاماته قائلاً: وأنشأت خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره إلى ما وشّحتها به من الآيات، ومحاسن الكنايات، ورصّعت فيها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية، والفتاوى اللغوية، والرسائل المبتكرة، والخطب المحبّرة، والمواعظ المبكية، والأضاحيك الملهية. (الحريري، ۱۹۹۲م: ۱/ ۲۵، ۲٦)

ومن الممكن اعتبار هذا التعريف الذي قدّمه الحريري لمقاماته كبيان لموضوعاته وأغراضه تلك.

٤-۱- الدلالة الدينية

لقد أكثر الحريري من استخدام الأماكن الدينية في مقاماته بشكل لافت، وذلك يتمثل في

مـــمارسة الفرائض الدينية في الأماكن الـــمقدسة كمكّة والـــمدينة، وزيارة قبر النبي (ص)، وأداء الصلاة في الـــمساجد، وطلب التفكير بالثواب والعقاب، والقبر والآخرة، وبالـــحض على الـــهدى والعمل الصالـــح والزهد في الرغبات. يقول في الـــمقامة الأولى: «**أيُّها السَّادِرُ في غُلَوَائه، السَّادِلُ ثوب خُيَلائه، وتستمرئ مرعى بغيك، وحتام تتناهى في زهوك، ولاتنتهي عن لـــهوك، تبارز بـــمعصيتك مالك ناصيتك، وتـــجترئ بقبح سيرتك على عالم سريرتك، وتتوارى عن قريبك وأنت بـــمرأى رقيبك.**» (الـــحريري، ١٩٩٢م: ٤١/١) في الـــمقامة الدمشقية مثلا نسمع ألواناً من الابتهالات، والتوحيد، والدعاء وطلب الرزق والـــمغفرة على أحسن صورة، يتوخاها الـــمؤمن ويترجاها وهو يقول: «**اللهم حُطني في تربتي: أي احفظني في بلدتي.**» (الـــحريري، ١٩٩٢: ٢/ ٣٠٨).

وإذا أردنا أن نكون دقيقين في دراسة هذا البحث فعلينا أن نتوقف عند كل واحد من هذه الاماكن على حدة.

مكة: يتردد استخدام كلمة مكة بين الأوصاف والألقاب الـــمختلفة. تكاد تكون كلمة أم القرى من أكثرها تردادًا، كما جاء في الـــمقامة الـــخامسة الكوفية: «**وحرمة الشيخ الذي سن القرى وأسسّ الـــمحجوج في أم القرى**». (الحريرى، ١٩٩٢م: ١/ ١٣١) فهي على مستوى العالم التوحيدي تبرز معها صورة اعتقادية جلية، وتحتوي على قدر كبير من الدلالات والرموز، تتناغم فى حركاتها مع الظروف السائدة فى العالم التوحيدي طيلة العصور الـــماضية. وقد اتـــخذ الـــحريري من مكة التى وصفها بأم القرى وسيلة لاستعادة الوحدة والفخر التي رافقت الأمة الإسلامية فى أزهى عصورها.

لايكتفي الـــحريري بذكر مكة وأسمائها الأخرى فقط، وإنـــما ينفذ في أجوائها الداخلية، فيتحدث عن الـــمشعر الـــحرام: «**أقسَمْتُ بالـــمَشْعَرِ الـــحَرامِ ومنْ ... ضمّ منَ الناسِكينَ خَيْفُ مِنى**»، (الـــحريري، ١٩٩٢: ٢٠٢/١) والـــمقام والبلد الـــحرام «**دهليز البلد الـــحرام، وقبالة الباب والـــمقام**»، (الـــحريري، ١٩٩٢م: ٦٥٥/٤) والإحرام «**فحللناها متأهبين لإحرام**»، (الـــحريري، ١٩٩٢م: ١٧٢/٣) والبيت الـــحرام «**واهتاج لي شوق إلى البيت الـــحرام**». (الـــحريري، ١٩٩٢م: ٣/ ١٦٧)

والطريف هنا أنَ كلامه عن مكة وما يـــجاورها من الأماكن الـــمقدسة الأخرى ليس

مـــجرد كلام نظري بـــحت، بل يصاحبه عمل ميداني عميق، يتمثل في الزيارات التي كان يقوم بـــها البطل نفسه، يؤدي الصلاة فيها، ويطوف ويـــمر بـــها، ويسكن بـــجانبها، ويدعو الله في أرضها.

الـــمدينة الـــمنورة: وقد احتضنت الـــمدينة لأول مرة في تاريـــخها الطويل الـــمركزية السياسية والإدارية للدولة الإسلامية، حيث تبوأت المكانة الثانية بعد مكة لدى الـــمسلمين بلاشك وريب. وأوردها الـــحريري في مقاماته بأسماء عديدة، فمرة يذكرها إلى جانب مكة وتحت مسمى الـــحرمين، كما جاء في الـــمقامة السابعة والأربعين الـــحجرية، وهو يقول: «**والذي حرَّم صَوْغَ الـــمَيْن، كما حرَّم صَيْدَ الـــحَرَمَيْن**». (الـــحريري، ۱۹۹۲م: ٤/ ٦٠١).

وأخرى يذكرها باسم طيبة، وهو في الـــمقامة الثانية والثلاثين الطيبية، وذلك عندما قصدها الـــحارث لزيارة قبر النبي الـــمصطفى. ونـــحن أساساً لانرى في كتاب الـــمقامات أي جدوى يبتغيها من زيارة الـــمدينة الـــمنورة سوى الدافع الديني والعبادي والذي يتمثل بزيارة قبر النبي والبقيع.

لقد شكلت مدينتا «مكة» و«الـــمدينة» مسرحا عاماً لتدفق الزوار من أكناف العالم طيلة القرون الـــماضية، واستوعبتا شعوباً وقبائل ذات تقاليد متنوعة، ويـــمكن اعتبارهما خير نـــموذج لعملية الـــمزج الـــحضاري والثقافي، بـــحيث صارت العلاقة بين الشخوص والـــمكان طبيعية وذات دلالة خاصة، وفقا لـــما يراه صبري حافظ: «إذا دخلت العلاقة بين الشخصية والـــمكان مرحلة جديدة أصبح الـــمكان شرطاً للوجود ذاته وعاملاً من العوامل بين الشخصية وتـــحديد استجاباتـــها». (حافظ، ۱۹۹۰م: ٣٦)

والـــمسجد من الأماكن التي وردت في كتاب الـــمقامات بكثرة؛ وهذه الكلمة تدل على مفهوم الدين والعقيدة خير دلالة، والتي تـــحمل فى طياتـــها رموز عبادية: كالـــمصلى والـــمحراب والصلاة، فهي تأخذ دائماً مكانتها الـــحقيقية فى الكتاب، كما ورد فى الـــمقامة السادسة عشره الـــمغربية، حيث نقرأ: «**فحيَّانا بالكَلِمَتَيْن وحَيَّا الـــمسجد بالتَّسْلِيمَتَيْن**». (الـــحريري، ۱۹۹۲م: ۳۹۵/۲) ويبدو أنه لايعجبه أن يكون الـــمسجد خالياً من أهله، حيث تـــجلى ذلک في الـــمقامة الثالثه عشرة البغدادية، وهو يقول: «**ثم عاجت بـــخلو بال، إلى مسجد خال**». (الـــحريري، ۱۹۹۲: ۳۵۳/۲). وأما إذا كان الـــمسجد مكتظاً

بـــجمهور الـــمصلين فهو يـــحضر في هيئة الـــخاشع، كما هو الـــحال في الـــمسجد الـــجامع بـــمدينة ســـمرقند واصفاً إياه أجمل توصيف، وهو يقول: «**أخذت في غسل الـــجمعة بالأثر، ثم بادرت في هيئة الـــخاشع إلى مسجدها الـــجامع، لألـــحق بـــمن يقرب من الإمام**». (الـــحريري،١٩٩٢م :٣/١٠٠).

«**ولم يزل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ويردون فرادى وأزواجاً، حتى إذا اكتظ الـــجامع بـــحفله، وأظل تساوي الشخص وظله**». (الـــمصدر نفسه: ٣/١٠٠) وعندما يلوح عليه الهم شعاره، يأمل أن يجد شفاءه في الـــجامع، لأنه «**مأهول الـــمساند ومشفوه الـــموارد**». (الـــمصدر نفسه: ٤/٦٥٤).

وقد شاركت الـــمسجد في دلالته الدينية رموز دلالية أخرى تكاد تكون مصيرية في هذا الـــمجال كالـــمحراب والـــمصلى والـــمأذنة. ونستطيع القول إنّ الـــمسجد لايستطيع أداء أي دور ديني إلا بوجود هذه الطقوس. والـــمحراب، كما جاء في هامش كتاب الـــمقامات، سيد الـــمجالس ومقدمها وأشرفها عندالعرب وقيل للقبلة مـــحراب لأنه أشرف موضع في الـــمسجد، وسمي مـــحراب الـــمسجد لانفراد الإمام به.(الـــمصدر نفسه: ٤/ ٦٦٨).

والـــمصلى هو البساط الذي يصلي عليه الشخص، وأما قاضي معرة النعمان فهو لايتأنى أن يـــجعل من مصلاه ملاذاً آمناً لوضع دنانيره كي يلعب أكثر من دور، ويقوم بواجبه عند الـــحاجة كما ورد في الـــمقامة الثامنة الـــمعرية حيث أبرز القاضي ديناراً من تـــحت مصلاه وأعطاه لشخصين فقيرين. (الـــمصدر نفسه: ١/ ٢٠٣).

وهذا إن دل على شيء فإنـــما يدل على أنّ الـــجمع بين الـــحياتين الدنيوية والأُخروية أمر مـــمكن ومستحسن؛ أو بالأحرى يدل على أنّ الأمور الـــمادية يـــمكن استخدامها لـــخدمة الاغراض الـــمعنوية.

الـــمحشر والـــمعاد لايـــخلو كتاب الـــمقامات من اهتمام الـــحريري بالأمور الأخروية، فوضعها نصب عينيه في معظم الـــحوارات التي تـــجري أثناء الـــحكايات والـــخطب والوعظ. وقد عبرت عنها كلمة الـــمحشر خير تعبير، ومثلتها أفضل تـــمثيل. والـــمحشر في الواقع موضع اجتماع الناس يوم القيامة، ولكن لايعبر لوحده عن القيامة

والـــحياة في كتاب الـــمقامات، وإنـــما هناك كلمات ومصطلحات أخرى تواردت بكثرة وتـــحمل هذا التعبير، كالتابوت: «**فأدخلني بيتاً أحرج من التابوت وأوهن من بيت العنكبوت**». (الـــمصدر نفسه: ۳۷٦/۲) والقبر: «**آنست من قلبي القساوة، حين حللت ساوة، فأخذت بالـــخبرالـــمأثور، في مداواتـــها بزيارة القبور**». واللحد: «**فما يعرف أحي هو فيتوقع، أم أودع اللحد البلقع**». (الـــمصدر نفسه: ۱۳٦/۱).

ويعالـــج الـــحريري موضوع القيامة والـــحياة الأخروية بأسلوب وعظي وجداني، فهو يتغلغل في اللاوعي الإنساني، يـــخاطبه ويـــحضه على الـــهدى ويـــحثه على العمل الصالـــح، ويزهد في الدنيا ويذكر بثواب الآخرة. ومـــما لا شك فيه أنّ القبر يأخذ وضعا خاصا لارتباطه بطقوس الـــموت وما يـــجلبه من مشاعر وأوجاع للنفس البشرية.

فالعلاقة هنا ليست علاقة عادية بقدرما هي علاقة دينية يريد الـــحريري أن يثبتها ويقرّرها؛ فهو يعترف بقداسة الـــمسجد والـــمصلى بقدرما يعترف بقداسة الدين الاسلامي. ومن هذا الـــمنطلق نستطيع القول إنّ الـــحريري يرى في هذه الطقوس بديلاً اعتقادياً مناسباً، تـــحقق آماله ومتطلباته الروحانية والـــمعنوية.

ومن خلال دراستنا لأهم مظاهر الدلالة الدينية في كتاب الـــمقامات وجدنا أنّ هناك عناصر أساسية ذات أهـــمية، يـــمكن اعتبارها النتيجة الـــحتميّة والضرورية لـــهذه الدلالة، بـــحيث لاوجود لـــها إلا بـــها، وهي عناصر ثلاثة: الـــحماية، الألفة، اليقظة:

أولا: الـــحماية، تكاد تكون الـــحماية أهم وأبرز هذه العناصر، فالـــمسجد يوفر الـــحماية والصيانة والطمأنينة للمصلين وللإنسان الذي يبتغيه ويقصده خمس مرات يومياً، وعلى وجـــه الـــخصوص عندما يـــجد نفسه بوسط جماهير غفيرة لا تهمهـــم إلا كلمـــة واحـــدة، ولا تـــجمعهم إلا قبلة مشتركة، حيث يبتعد الإنسان في هذا الـــمكان كليا عن الوحدة، ويبتعد أيضاً من الـــخوف والعزلة. وفي سبيل تبيين هذه الـــحماية نقتبس بعض العبارات من نـــص الـــمقامات التي يقول فيها: «**فبينما أنا أنفض طرقها وأستشفّ رونقها، إذ لـــمحت عند دلـــوك براح، وإظلال الرّواح، مسجداً مشتهراً بطرائفه، مزدهراً بطوائفه، و قد أجرى أهله ذكر حروف البدل، و جروا في حلبة الـــجدل فعجت نـــحوهم ،لأستمطر نوأهم**». (الـــمصدر نفسه ٦۲۲/٤) وفي هذه العبارات تتجلى دلالة الـــحماية في طلب الـــمعروف والـــخير والبركة، واستمطار

الرحمة. وعندما يشعر الـــحارث ابن هـــمام بالقساوة لدى دخوله مدينة ساوة ، يقوم بزيارة القبور عملاً بالـــحديث الـــمأثور؛ فيقول: «**آنست من قلبي القساوة، حين حللـــت ســـاوة، فأخذت بالـــخبر الـــمأثور، في مداواتـــها بزيارة القبور**». (الـــمصدر نفســـه: ٢٧٦/١ و١٧/٣) وقس على هذا نـــماذج وافية في الـــمقامات الأخرى.

ثانياً: الألفة، لاينكر أحد أنّ الـــمظاهر الدينية التي لـــها بصمات واضحة في الـــمقامات كالـــمسجد والـــمحراب والإحرام والـــمزار، علاوة على ما ذكرنا آنفاً، تترك في أعمـــاق النفس الإنسانية أثراً معنوياً آخر، وذلك متجسد في الألفة والأنس. فكما يوفر الـــمسجد الـــحماية للجنس البشري الـــمتدين، كذلك توفر الألفة وتسبب الأنس له. وقد بدا واضحاً هذا الأمر فى الـــمقامة الـــحادية والأربعين «التينية»، حيث يقول: «**فلّما ألقتني الغربة بتنيس، وأحلّتني مسجدها الأنيس، رأيت به ذا حلقةٍ ملتحمة، و نظارة مزدحمـــة**». (الـــمصدر نفســـه: ٤٣٥/٤و٤٣٦)

ثالثاً: اليقظة، قد يـــحتاج الإنسان إلى سبب أو عامل داخلي كان أو خارجي، يلعـــب دور حليف سليم له، أوقرين وفي، يساعده في الـــخروج من الانشغالات الدنيوية، ويســـانده في الابتعاد عن العلائق الـــمادية، ويـــمنعه من الاستمرار في الطريقة التي تسلب قواه وتـــمتص طاقته يوماً بعد يوم، وتؤدي به في نـــهاية الـــمطاف إلى طريق مـــجهول ومسدود، وهو لا يشعر بذلك مهما حاول، لأنه فقد عنان سيطرته أمام هذه الهجمة الطاغية الـــمخيفة، الـــتي تظهر بـــمظهر جميل، اللهم إلا إذا حالفه الـــحظ، وحدثت له صحوة مفاجئة، ودبّت حياة جديدة في نفسه، ووضعت له حداً لـــهذه الـــحالة. فنحن نقرأ في الـــمقامات فقرات تدل دلالة قوية على هذه الظاهرة، حيث كانت هناك أمكنة ذات دلالة دينية لعبت دورها في خلق تلك الصحوة، كالدور الذي قام به البيت الـــحرام في إثارة ريح الغرام، في نفـــس الـــراوي الـــحارث بن هـــمام. وإليك بعض ما جاء في النص: «**وأصعدت إلى ساحل الشام للتجـــارة، فلما خيمت بالرملة، وألقيت بـــها عصا الرحلة، صادفت بـــها ركاباً، تعد للسرى، و رحالا تشد إلى ام القرى، فعصفت بي ريح الغرام، واهتاج لي شوق إلى البيت الـــحرام**». (الـــمصدر نفســـه: ١٦٧/٣)

وتوجد هناك ثنائية في غاية الأهـــمية، تبرز نفسها أيـــما إبراز، فهـــي ثنائيـــة الـــمفتوح

والـــمغلق، فكل شئ في عالم الـــمشعر الحرام مفتوح حتى الـــخيمة الـــتي يـــأوي إليهـــا الـــحجيج، وهذا ما يـــجعله يرفض انغلاق أكواخ الواحات وبيوتـــها عليه. وأما بالنسبة إلى الثنائية الـــمغلقة قد تساعدنا تلك الفقرة التي تتحدث عن بيت أحرج من التابوت. أو الفقرة التي تتحدث عن اللحد البلقع.

۴-۲- الدلالة الاجتماعية

تتمحور الدلالة الاجتماعية في كتاب الـــمقامات حول الامكنة التالية: الـــمنـــزل، النادي، الـــمجمع، الـــمدينة، عرصة الـــجمع، غاية الـــجمع، الـــخيام، دارالسلام، و... وكلـــها أمكنة نامية حية، وفيها انسيابية متنامية، وإمكانية تـــحويلها الـــمستمر من حال إلى حال، إلا أنـــها في مـــجملها تسير في اتـــجاهين اثنين: الاتـــــجاه الأول، يشـــمل الـــــمؤسسات الـــمدنية، كالـــمنـــزل والبيت والـــحارة والقرية والـــمدينة. والاتـــجاه الثاني، يـــحوي الـــمؤسسات الثقافية، كالنادي والـــمنتدى و الـــجمع و الـــمدارس.

يكاد يكون البيت أو الـــخيمة أول مألوف مكاني عرفه الإنسان في إطار حياته الاجتماعية، وسرعان ما يألف الـــحارة التي يعيش فيها، ثـــم الـــمنطقة أو القرية وزواياها، وأخيراً الـــمدينة، وذلك في أفضل حالـــها. ويكفي سبباً لإثارة هذه الألفة أنّ البيت يوفر الـــحماية، ويُؤَمِّن الاطمئنان، وكذلك يوفر الـــحجاب الاجتماعي.

تـــمثل الأمكنة التي تدل على الـــمؤسسات الـــمدنية عن وجود الـــحياة النامية إلى جانب النشاط والأمل الـــمتزايد؛ فالقرية التي يتحدث عنها الراوي ليست فقيرة على الإطلاق، حيث يقصدها أبوزيد ليستحم، لأن بدنه قد اتسخ، وامكانيات النظافة متوفرة، حيث الـــحمام وامتلاء كيسه.(الـــمصدر نفسه:۱۱۲/۱) وأما في الـــمدينة فهو لم يدخلها إلا وامتزج بـــحاكمها امتزاج الـــماء بالراح. (الـــمصدر نفسه: ۲۱٦/۱) وما هناك أدنى شك في أنّ لـــمدينة السلام «بغداد»، والتي وردت بكثرة، مكانة مرموقة بين الـــمدن في كتاب الـــمقامات، إلى درجة يكره أن يشيع فعلته بـــها. (الـــمصدر نفسه: ٦۱۰/۲) ولبغداد دلالات تكاد تكون غير موجودة لدى غيرها من الـــمدن؛ فهي تـــمثل الاستقرار والأمن، وإنـــها تعبير عن الوطن الأخضر، الأرض العراقية الـــمنبسطة. والـــمدينة سياسية بـــحتة، كما هي اقتصادية، مـــما حدا بـــها لأن ترخى أسبابـــها لرياح جديدة بدأ الـــحريري يتشممها.

وقد تـــخير الـــحريري في بعض مقاماته أن تنطلق القصة بتوصيف الـــمكان على الطريق

السينمائية القائمة على الانطلاق من الأوسع إلى الأضيق، من الأكبر نـــحو الأصغر، من العام نـــحو الـــخاص، من العراق كوطن، الذي حضن الـــحضارات القديـــمة العريقة، إلى حمى الـــخلافة والـــحرم العاصم من الـــمخافة وهي مدينة بغداد، والتي تقع في وسط البلاد، ومن الأشمل نـــحو الأدق لتنـــزل إلى داخل حريـــم قصر الـــملك، وتـــحل في باب الإمارة، وها هو الراوي يعيره عينه لينـــزل أكثر نـــحو الأسفل موظفاً أسلوب الإنارة مسلطاً الضوء على الـــجزئيات: «**فَبَرَزْتُ يوماً إلى الـــحريم لأرُوضَ طِرْفِي، وأجيلَ في طُرُقِهِ طَرْفِي**». (الـــمصدر نفسه: ٥٥٣/٢) وبدقة أشد ينقل لنا توصيفاً للحركات: «**قد لبَّبَ فَتًى جديد الشباب، خلق الـــجلباب، فركضت في إثر النظارة**». (الـــمصدر نفسه: ٥٥٣/٢)

وهناك مـــحاولة جادة من قبل الـــحريري لإيـــجاد ترابط بين الـــمكان وظاهرة اجتماعية واضحة، تلك هي ظاهرة التسول التي تفشت في أيامه، وأصبحت حرفة عن مبدأ ونظرة فلسفية، حيث لا يتم ظهورها إلا عبر الـــمكان، وهو الأنسب لإبراز ظاهرة التكدي.

وبـــمثل هذا أيضاً أنطق الـــحريري بطل مقاماته أبازيد السروجي، فقال: «**أقوى الـــمجمع، وأقض الـــمضجع، واستحالت الـــحال، وأعول العيال، وخلت الـــمرابط، ورحم الغابط، وأودى الناطق الصامت ورثى لنا الـــحاسد والشامت**... (الـــمصدر نفسه: ٨٧/١). وكذلك ينطق الـــحريري بطل مقاماته أبا زيد السروجي في موضع آخر بقوله:

ياليتَ شِعري أَدَهْرِي / أَحاطَ عِلماً بِقَدري

وهل دَرَى كُنهَ غَوري / في الـــخَدعِ أم لَيس يَدري

كَم قد قَمَرْتُ بَنيهِ / بـــحيلتي و بمكري

وكَم بَرَزْتُ بِعُرف / عَليهم و بُنُكْرِ

أَصطادُ قوماً بِوعظٍ / وآخَرين بشعرِ

وَأَستَفِزُّ بِخَلٍّ / عَقلاً وعقلاً بِخَمْرِ

وتارةً أَنا صَخْرٌ / وتارةً أُخْتُ صَخرِ

و لو سلكتُ سبيلا / مألوفةً طولَ عمري

(الـــمصدر نفسه: ٢/ ٣٥٣)

وأما الأمكنة الأخرى الـــمتواجدة في الاتـــجاه الثاني، كالنادي والـــــمجمع والـــــمنتدى

تـــمثل الـــجانب الثقافي أكثر مـــما تـــمثل السكن والاستقرار، كما شاهدنا في الـــمقامه التاسعة والأربعين الساسانية: «**وكان أهلها أعز قبيل، وأسعد جيل، لايـــرهقهم مـــس حيـــف، ولايقلقهم سل سيف، ولايـــخشون حمة لاسع، ولايدينون لدان ولاشاسع، ولايرهبـــون مـــــمن برق ورعد، ولا يـــحفلون بـــمن قام وقعد، أنديتهم منـــزهة، وقلوبـــــهم مرهفـــة، وطعمهـــم معجلة، وأوقاتـــهم غر مـــحجله، أينما سقطوا لقطوا، وحيثما إنـــخرطوا خرطوا، لا يتّخـــذون أوطاناً، ولا يتقون سلطاناً، ولا يـــمتازون عمّا تغدو حماصا وتروح بطانا** ...» (الـــمصدر نفســـه: ۳۵۳/۲) وكذلك نرى في الـــمقامة الثانية الـــحلوانية حيث يقول: «**فلما أبت من غربتي، إلى منبت شعبتي، حضرت دار كتبها، التي هي منتـــدى الـــــمُتَأدِّبين، وملتقـــى القـــانطين منـــهم والـــمغتربين** ...». (الـــمصدر نفسه: ۱/ ۵۸)

والـــحقيقة أنّ بعض الأمكنة كالنادي والـــمجمع والـــمنتدى تشكل أحد أهم أجزاء الـــمكان الـــمفتوح الـــمكشوف الذي يكون فرصة للنشاط والعلائق الاجتماعية، وليس حضورها واسعا في مقامات الـــحريري لأسباب تكاد تكون أكثر أهـــمية للتركيز على الـــحياة الداخلية في الـــمدن.

ومن الطريف أنّ الظروف الاجتماعية هي التي تـــمنح الدلالة أن تتكلم وتلعب دورها، فالصحراء تولد الدلالة على عكس ما تولدها الـــمناطق الـــخصبة، والـــحواضر غير البوادي، وضفاف الأنـــهار، والبلاد الـــمجاورة، للبحر لـــها دلالة غير تلك التي يعيش قاطنوها في الـــخيم.

۴-۳- الدلالة الإقتصادية

إنّ إيـــحاءات الصورة في نص الـــمقامات استطاعت أن تـــحكي ملامح الواقع الاقتصادي الـــمعيشي في ذلك العصر، ولاسيما في الأوساط التي ترتبط بـــحياة شرائح اجتماعية عديدة، ومنها الـــمتكدين على سبيل الـــمثال، والتي تبرز من خلال بعض تلميحات ومـــمارسات هذا الواقع وعاداته، حيث يصور لنا في الـــمقامات نـــماذج عديدة عنه، ويقدم أشخاصا تقلبوا في الـــمعيشة مايعكس تأثير الاقتصاد على مـــختلف الشرائح الاجتماعية، حيث صورها ببراعة وجمال، فجاب الراوية الـــحارث بن همام البلاد، وشهد الـــمحافل، وتقلب بين الغنى والفقر، ونال حظه من الدنيا، وذاق طعم الـــهناء والشقاء، وأحكمته التجارب، حتى كان رجلا من كملة الرجال في معظم الـــمقامات، فنراه في الـــحلوانية مثلا بين بغداد

وهمذان يباحث كل من جلّ وقلّ، ونراه في الدمشقية خالي الذرع، ذا مال وخيل وزرع، آخذاً في اجتناء اللذات، وكذلك نراه في الشيرازية في مـــجلس فكاهة أطرب من الأغاريد، ونشاهده في الإسكندرانية ناشطاً لاكتساب الـــمال، يقتحم الأخطار، لإدراك الأوطار، وفي الكوفية والدينارية والـــمراغية مع رفقة غذوا بلبان البيان والفصاحة، وفي الـــمعشر يتحدثون عن فرسان البراعة والبلاغة.

وأما الأمكنة التي تنعكس على واقع الـــحياة الاقتصادية الـــموجودة في كتاب الـــمقامات، فيمكن إدراجها في خانات ثلاثة: الأولى: هي الأمكنة التي تعبر عن واقع الـــحياة الاقتصادية الـــمرفهة، أو ما نسميه اليوم «الـــحياة الرأســـمالية»، وهي ليست قليلة كالقصر والقلب ومطارف الثراء والدسكرة والـــمنتجع والـــحريم. والثانية: هي الأمكنة التي تـــمثل حياة البؤس والفقر والعيش الـــمرير، كمنـــزل قفر وسوق الإفلاس. والثالثة: هي الأمكنة التي تلازم حياة الـــمتكدين وحيلهم كالـــمساجد والاماكن العامة؛ فمكدى الـــحريري يظهر أول ما يظهر أيضاً في مسجد البصرة (الـــمصدر نفسه:٤/٦٢٠).

وقد توقف الـــحريري لدى النسيج العمراني لكل منطقة فعبّر عن خصوصيتها بطرائق عديدة إما ملائمة لظروف الطقس، أو لظروف الـــحياة، كما هو الـــحال بالنسبة إلى الدور الـــمتواضعة؛ وهو يقول في الـــمقامة السادسة عشرة: «**أخذ بي في طرق متعبة، وسبل متشعبة، حتى أفضينا إلى دويرة خربة، فقال: ههنا مناخي، ووكر أفراخي، ثم استفتح بابه، واختلج مني جرابه...**». (الـــمصدر نفسه:٢/٤٠٧) فهو ينظر إلى بنائها من زوايا عديدة: القديم والـــجديد، والـــموقع الـــحيوي الذي يزيد من أهـــمية الدار، نظرا للحاجة الـــماسة للمأوى الذي تتطلبه ضرورة الـــحياة. وقد ظهرت في الـــمقامات أنـــماط متعددة من الدور.

والطريف أيضا أنّ الـــحريري لا ينسى أن يـــحدثنا عن تفصيلات دقيقة عن البلاد وقاطنيها، من خلال زياراته الـــميدانية ومشاهداته الـــمباشرة، وإليك النص التالي مثالا على ما ذكرناه: «**نزع بي إلى حلب، شوق غلب، وطلب يا له من طلب!... فأخذت أهبة السير، وخففت نـــحوها خفوف الطير، ولم أزل مذ حللت ربوعها، وارتبعت ربيعها، أفاني الأيام... إلى أن أقصر القلب عن ولوعه... فأغراني البال الـــخلو، والـــمرَحُ الـــحُلوُ بأن أقصد حمص لأصطاف ببقعتها، وأسبر رقاعة أهل رقعتها**». (الـــمصدر نفسه: ٤/٥٦٠)

۴-۴- الدلالة الأدبية

مما لا شك فيه بأنّ مقامات الحريري، إن لم تدرس في أطر أدبية، فسينال مؤلفها الإجحاف. وإذا أمعنا النظر في مقاماته نجد الكثير من الأمكنة التي أوردها تعتبر من الروائع الأدبية والمحسنات البديعية: كالعرينة (اسم بلدة و أصلها بيت الأسد)، وفناء الواري (ما حول الدار)، والموسم (الموضع الذي يجتمع فيه الناس خلال العيد)، وحمى الخلافة (العاصمة بغداد)، والإغراق (الفقر المدقع) والحاجة إلى الزاد والملبس وكأنه غرق فيه وهو يرجع إلى الغرق، (والإغراق المبالغة في الشيء)، والتهود (هو مفتاح التزهد، ويعني التوبة)، وكأس المنافثة (المحادثة).

لقد امتلأت المقامات بالأغراض الأدبية المتنوعة فلا تكاد تخلو منها مقامة. وكما وجدنا في مقامات الحريري أمكنة أدبية مألوفة كمجالس العلم والدواوين، وجدنا أيضاً أمكنة أدبية من النوع الآخر كالصحراء، والأندية. يصف الحارث طبيعة الحالة الأدبية التي تسود الأندية، وذلك بقوله في المقامة الدينارية: «**نظمني وأخدانا لي نادٍ... فبينما نحن نتجاذب أطراف الأناشيد، ونتوارد أطراف الأسانيد**». (المصدر نفسه: ۸۵/۱)

ومما لا شك فيه أنّ هناك علاقة وثيقة بين الأدب وحياة الحرمان والكدية التي يمارسها المكدّي بنباهة وبلاغة وبكثير من السخرية والمرح. وعادة الكدية هي المهنة الرئيسية لأبطال المقامات، والدليل على ذلك هو ما جاء في المقامة الساسانية أنّ بطل المقامات أبا زيد السروجي أوصى ابنه بأن لاصناعة أنفع من الكدية؛ (المصدر نفسه: ۶۴۰/۴) وفي ذلك يقول الدكتور عبد الكريم اليافي: «الذي يطالع مقامات الحريري يعجب لمهارة بطلها الساسانيه عجبه لصناعة مؤلفها الأدبية، فيجد صوراً شتى لأبي زيد وألاعيبه، مرصعة ببيان المؤلف مزخرفة بثراء لغته، محلاة ببديع أساليبه. فالبلاغة صنو ضيق ذات اليد والاحتيال على اللفظ والتعبير كالاحتيال على المعيشة وجمع الدراهم والدنانير؛ بل إن هذا الموضوع يعالجه الحريري من أطراف شتى، ولكنه يحجبه بأساليب البلاغة والصناعة. (اليافي، ۱۹۶۳م: ۶۳۸) وممّا يدل أن الأدب كان يترك تأثيراته على الحياة العامة والشرائح الاجتماعية بكل أطيافها بدءا من الفئة الدنيا المتمثلة بالمتكدين.

٥- وهنا لابد من الإشارة إلى بعض الـــملاحظات الأساسية

- وإذا دققنا في خصوصية الـــمكان في الـــمقامات وجدنا أنـــها لاتعود إلى تنوع الأمكنة التي تتوفر عليها البيئة من صحراء وقرية ومدينة فحسب، بل إلى الـــحالة الفسيفسائية التي تعيشها، وتتجاذبـــها تفاصيل كل مكان من هذه الأمكنة، نظرا لوجود عدد من البيئات الـــمتنوعة التي تـــحمل إحالات وإشارات الاختلافات الـــمثمرة. (راجع: الـــحريري، ١٩٩٢م: ٥٥٩/٤ و ١٤٥/٣)

- وإلى جانب اهتمام الـــحريري بالبعد الـــجغرافي للأمكنة في مقاماته نراه أيضا ينظر إلى إحالاتـــها ومرجعياتـــها، إذ كثيرا ما ينسب الشخوص والأمكنة إلى أماكن انتمائها الأولى في إشارة منه إلى كسر تـــخصيص ما تعارف عليه الناس في تأكيد صفات معينة منسوبة لأمكنة مـــحددة أحيانا وفي عكس ذلك أحيانا أخرى. وهذا يندرج في خط آخر هدفه إعلاء سلطة الـــمكان غائبا أو حاضرا، ومن خلال نسبة الشخوص إليه: البغدادية، الإسكندرية، الدمشقية، الكوفية، الدمياطية، التبريزية، السمرقندية، تـــميمي النسب .... إنه يريد أن ينقل ذكر الـــمكان مع الشخصية للإشارة إلى خصوصية العلاقة بين الشخص والـــمكان.

- وقد لـــجأ الـــحريري في استخدامه للأمكنة إلى أكثر من لفظ للتعبير عن معنى واحد، وهو في تعبيره عن كلمة البيت أو الـــمأوى والسكن يقول: «**فلما استخرجني من كناسي، ورحلني عن أناسي، ونقلني إلى كسره، وحصلني تـــحت أسره**». (الـــمصدر نفسه: ٢٩١) وهذا إن دل على شيء فإنـــما يدل على مهارة الـــحريري وقدرته على رصد الكلمات وإحضارها.

- وبالنظر لاهتمام الـــحريري الكثير إلى استخدام الأساليب البلاغية في مقاماته، فنجد بأنّ هذه الظاهرة سرت كذلك في كتاباته عن الأماكن بصورة جلية واضحة، كما جاء في قوله في الـــمقامة التاسعة الإسكندرية: «**طحا بي مرح الشباب، وهوى الاكتساب، إلى أن جبت ما بين فرغانة** (مدينة في أقصى خراسان) **وغانة** (بلد من بلاد سودان). (الـــمصدر نفسه:٢٠٩/١) «**وعاهدت الله سبحانه وتعالى أن لا أحضر بعدها حانة نباذ، ولو أعطيت ملك بغداد**». (الـــمصدر نفسه: ٣٣٩/١)

- يـــجد الباحث بكل وضوح أثناء رصده لدلالات الأمكنة في الـــمقامات، أنّ هناك مكان يتردد معناه حسب الظروف الـــمؤاتية في الـــمقامة، كلفظ الـــمنـــزل مثلا، فهو يرمز أحياناً عن التملك والاستقرار، بينما السفينة تعني الإقامة الـــمؤقته.

– يتميز المكان في النص المقامي بالتنوع والتلون، فلا وجود لمكان واحد فقط في الأحداث التي يستعرضها الحريرى في مقاماته؛ فهو عندما يتناول حدثاً من الأحداث لايحدّد المكان في إطار صغير أو ضيق، بل يتعداه إلى ذكر أماكن أخرى كثيرة ضمن ذلك الإطار، فلو أنّ مقامة اتخذت من قرية معزولة مكانا قصصيا لأحداثها، فإننا داخل هذا الإطار المكاني الصغير سنجد عدة أماكن كالبيوت والأزقة والحقول وغيرها، أو لو أن مقامة اتخذت المدينة مكانا لأحداثها فإننا داخل هذا المكان الكبير نجد السوق والمقهى والأبنية.

۶– النتيجة

توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

أولاً: ومن خلال قراءتنا لنص المقامات، التي بحثناها في إطار المكان، وفي محاور ثلاثة، هي: أنواع المكان، والعلاقة بين المكان والحدث، والعلاقة بين المكان والشخصية، يمكن القول: إنّ المكان من أهم عناصر البناء حضوراً وتفاعلاً وتوظيفاً في مقامات الحريري على اختلاف طبيعة الحال في كيفية هذا الحضور والتفاعل.

ثانياً: لم يقتصر الحريري في مقاماته على ذكر مجموعة من الأمكنة الخاصة بشريحة ما، بل أورد أمثلة منها لكلا الشريحتين الفقيرة والغنية على حد سواء، فقد تحدث عن القصر بقدر ما تحدث عن الكوخ.

ثالثاً: هناك تأثيرات متبادلة بين الأماكن والشخصيات سلباً وإيجاباً. فالمكان يؤثر في الشخصية من جوانب كثيرة، منها الروحية والنفسية، كما نجد ذلك في المقامة الحادية عشرة (الساوية).

رابعاً: تكتسب الأمكنة في المقامات المطاطيةَ والمرونةَ، حيث ترافق الإنسان في كافة مراحل نشوئه، منذ ولادته ونعومة أظفاره إلى أن يوسّد في قبره ولحده.

خامساً: يمنح الحريري الأمكنة صفة الوعظ فيجعلها واعظة، فالإنسان يسترشد ويتعظ بها، فالمقدسة منها تمنحه العبر والخواطر والتأملات.

سادساً: لايشاهد الباحث في مقامات الحريري انحيازا لأماكن دون أخرى، فهو يشير إلى مكة المكرمة في المملكة العربية، وساوة في ايران، والإسكندرية في مصر، وبغداد والبصرة في العراق، وسمرقند في آسيا الوسطى، كل بما يقتضيه.

الـــمصادر

ابن الأبار، مـــحمد بن عبدالله بن أبي بكر الفضاعي البلنسي، **التكملة لكتاب الصلة**، الـــجزائر، ١٩١٩م.

ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت، دار احياء التراث العربي، د.ت.

بروكلمان، كارل، **تاريخ الأدب العربي**، مصر، دار الـــمعارف، د.ت.

أبوتـــمام، حبيب بن أوس، **الديوان بشرح ايليا الـــحاوي**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١م.

الـــجاحظ، عمرو بن بـــحر، **الـــحنين إلى الأوطان**، الـــمطبعة السلفية، د.ت.

جمعة ، بديع مـــحمد، **دراسات في الأدب الـــمقارن**، بيروت، دار الفكر، د.ت.

حافظ، صبري، «الروايه و الواقع» صص ٣٨-٣٤، مـــجلة الناقد، لندن، عدد ٢٦، ١٩٩٠م.

الـــحريري، أبو القاسم بن علي، **الـــمقامات، بشرح الشريشي**، بيروت، دارالفكر، ١٩٩٢م.

ضيف، شوقي، **الفن و مذاهبه في النثر العربي**، مصر، دار الـــمعارف، د.ت.

عزام ، مـــحمد ، **تـــحليل الـــخطاب الأدبي**، دمشق، اتـــحاد كتاب العرب، ٢٠٠٣م.

فضل، صلاح، **بلاغة الـــخطاب وعلم النص**، الكويت، سلسلة عالم الـــمعرفة، ط١، ١٩٩٢م.

مبارك، زكي، **النثر الفني في القرن الرابع الـــهجري**، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م.

الـــمقدسي، أنيس، **تطور الأساليب النثرية**، بيروت، دار العلم للملايين، د.ت.

اليافي، عبد الكريم، **دراسات فنية في الأدب العربي**، ط١، ١٩٦٣م.